

النحو العربي بين النظرية والتطبيق

د. ناديا حسكور
قسم اللغة العربية
كلية الآداب - جامعة حلب

د. محمد الوادي
قسم اللغة العربية
كلية الآداب بالحسكة - جامعة الفرات

الملخص:

يهدف البحث إلى عرض القضايا المشكّلة التي تكتنف واقع النحو العربي وتدرسه، ويعرض لما يُشاع عن صعوبته، ويبيّن دوافع تلك الادعاءات وغاياتها، ثم يذكر بعض الحلول المقترحة من أجل تقريب النحو العربي إلى أذهان المتعلمين، ويحاول الإفادة من تاريخه ومن جهود علمائنا السالفين في تناوله، والاستفادة أيضاً من النظريات اللغوية الحديثة في تعلم اللغات، كل ذلك بهدف إلى الحفاظ على تراثنا النحوي، وتمكينه، وتقديمه للدارسين بثوب لغوي معاصر يلئم حاجات أبناء العصر، ويرقى لتلبية متطلباتهم، لأنه عنوان اللغة ودرعها المتين، وصونه يعني الحفاظ على اللغة العربية التي تمثل هويتنا ووجودنا معاً.

البحث:

لقد تعرض أبناء هذا الجيل لسيل طاغ وموجات متلاحقة من التشكيك في التراث العربي. فالشعر الجاهلي غموض وانتحال، وتفسير القرآن مشحون بالإسرائيليات، والحديث مليء بالوضع والضعف، والنحو تعقيد وتأويلات، والصرف فروض ومناهات، والبلاغة تكلف وأصباغ، والعروض قيود ودوائر تدير الرأس، والتاريخ صنع للحكام والملوك، ولم يرصد نبض الشعوب. ومن وراء ذلك كله هدف مفاده، أن اللغة العربية عاجزة عن مسايرة ركب الحضارة؛ لقصورها عن التعبير عن العلوم التطبيقية والكونية؛ لأنها لغة شعر وبيان.

هذا ما يسمعه أبناؤنا كل يوم عالياً مدوياً، وتتجاوب أصدأوه المترنحة من صالات المقاهي الثقافية، إلى قاعات الدرس الجامعي، ولا يستطيع الشباب لذلك دفعا ولا رداً؛ لحدائث سنهم وقلة حينتهم؛ ولأن كل هذه السموم إنما تساق في ثياب مزركمة، من المنهجية والموضوعية، والتفكير العلمي، وحركة التاريخ، والموقف

النحو العربي بين النظرية والتطبيق

د. ناديا حكور
قسم اللغة العربية
كلية الآداب - جامعة حلب

د. محمد الوادي
قسم اللغة العربية
كلية الآداب بالحسكة - جامعة الفرات

الملخص:

يهدف البحث إلى عرض القضايا المشكّلة التي تكتنف واقع النحو العربي وتدرسه، ويعرض لما يُشاع عن صعوبته، ويبين دوافع تلك الادعاءات وغاياتها، ثم يذكر بعض الحلول المقترحة من أجل تقريب النحو العربي إلى أذهان المتعلمين، ويحاول الإفادة من تاريخه ومن جهود علمائنا السالفين في تناوله، والاستفادة أيضاً من النظريات اللغوية الحديثة في تعلم اللغات، كل ذلك يهدف إلى الحفاظ على تراثنا النحوي، وتمكينه، وتقديمه للدارسين بثوب لغوي معاصر يلائم حاجات أبناء العصر، ويرقى لتلبية متطلباتهم، لأنه عنوان اللغة ودرعها المتين، وصونه يعني الحفاظ على اللغة العربية التي تمثل هويتنا ووجودنا معاً.

البحث:

لقد تعرض أبناء هذا الجيل لسيل طاع وموجات متلاحقة من التشكيك في التراث العربي، فالشعر الجاهلي غموض وانتحال، وتفسير القرآن مشحون بالإسرائيليات، والحديث مليء بالوضع والضعف، والنحو تعقيد وتأويلات، والصرف فروض ومناهات، والبلاغة تكلف وأصباغ، والعروض قيود ودوائر تدير الرأس، والتاريخ صنع للحكام والملوك، ولم يرصد نبض الشعوب. ومن وراء ذلك كله هدف مفاده، أن اللغة العربية عاجزة عن مسايرة ركب الحضارة؛ لقصورها عن التعبير عن العلوم التطبيقية والكونية؛ لأنها لغة شعر وبيان.

هذا ما يسمعه أبناؤنا كل يوم عالياً مدوياً، وتتجاوب أصدواؤه المترنحة من صالات المقاهي الثقافية، إلى قاعات الدرس الجامعي، ولا يستطيع الشباب لذلك دفعا ولا رداً؛ لحدائثة سنهم وقلة حيلتهم؛ ولأن كل هذه السموم إنما تساق في ثياب مزرکشة، من المنهجية والموضوعية، والتفكير العلمي، وحركة التاريخ، والموقف

الحضاري ، والشمولية . ولا يعرف أثر هذه الألفاظ الغامضة المبهمة إلا من ابتلى بشرها ، واصطلى بنارها .

وكان أكثر هذه الأصوات دويًا ، وأشدّها فتكًا ، تلك التي انبعثت من داخل قاعات الدرس في جامعاتنا العربية . فمن جراء الثرثرة على نظريات غريبة تطاير شرر كثير ، حاول أن يأتي على تراث اللغة العربية العريق؛ شعرًا منظومًا حمل أنغامًا جليلة ، وكلامًا منثورًا أبان عن أدق أسرار النفس وخلجات الروح ، ثم ترتفع الشكوى في هذه الأيام من محنة اللغة العربية ، وغربتها ، وتدني مستواها ، على أسنة الخطباء ، وكتابات الكتاب ، ودارسي اللغة العربية .

ولأن دارسي العربية هم سدنتها في المستقبل، وهم المكلفون بالحفاظ عليها وصونها، فإن من الجدير بالاهتمام أن نلاحظ وضع اللغة التدريسي لتحديد أسباب الضعف، ومحاولة اقتراح الحلول الناجعة التي تسهم في الحد من هذا الضعف، وتسعى إلى تقليص المشكلة والسيطرة عليها قبل أن تستفحل وتعم. لذا كان لا بد من أن نلقي ضوءاً على بدايات الدرس اللغوي وتطوره للاستفادة من تاريخ النحو العربي ، بغية الإسهام في تحديد معالم تربوية تعليمية لإزالة الضعف اللغوي الملاحظ عند أبنائنا من الطلبة، على أن نرصد هذه الإطلالة برصد ما قدمته النظرات اللغوية الحديثة في الدرس اللغوي .

بدأ الدرس اللغوي عند العرب بعد انتشار اللحن. وهو يهدف إلى غايتين يريد تحقيقهما، الأولى: هي الحفاظ على لغة القرآن الكريم، أما الثانية فهي تعليمية ترغب في تيسير تعليم اللغة العربية للأعاجم الذين دخلوا في دين الله أفواجاً، وقد امتزج بهذين الهدفين هدف آخر هو التعليم الصرف. فقارئ الكتب النحوية يرى فيها مستويين من البحث، أحدهما تأسيلي فيه تتبع عميق لقضايا اللغة، فهو يستنبط أسرارها ومكوناتها، وخصائصها، ويحاول أن يستقصى القوانين التي تسير وفقها. ولهذا فقد كانت له أصول تشبه أصول الفقه. فعشق أصحاب هذا النهج القياس والعلة، وكان إلى جانب هذا المستوى من الدرس اللغوي مستوى آخر يسعى إلى عرض قوانين اللغة وتيسيرها للراغبين في تعلمها دون الخوض في جوانب تمثل

فلسفة النحو، فكان من هذه المؤلفات المقدمة في النحو (لخلف الأحمر، والواضح للزبيدي والإيضاح للفارسي واللمع لابن جني).

وقد أشار خلف الأحمر إلى ضرورة هذا النوع من الدرس إذ قال في مقدمته: لما رأيت النحويين وأصحاب العربية أجمعين قد استعملوا التطويل وكثرة العلق، وأغفلوا ما يحتاج إليه المتعلم.... أمعنت النظر في كتاب أولفه، ليستغني به المتعلم عن التطويل مما يصلح لسانه في كتاب يكتبه أو شعر ينشده أو خطبة يلقيها.¹ فاختم بهذا سبباً سار فيه كثيرون بعده، فتركوا لنا مؤلفات تنسج على هذا المنوال .

لكن ما آلت إليه الأمور أن أصبح للنحو ودارسته ميادين متشعبة وأفاق متباعدة لا تلائم القدرات النفسية لطلاب العلم، ولا يحتمل وعناءها رجالات التعليم، ولهذا لا بد من الإشارة إلى ضرورة تغليب القياسي المطرد ودفع سيرورته بعد استبعاد الشاذ والنادر، وقد أشار إلى هذا عيسى بن عمر حين سئل عما آلفه: أيدخل فيه كلام العرب كله؟ فقال: لا، وذلك لأنه وضع ما يصنفه على الأكثر وبوبه، وسمي، ما شذ عن الأكثر لغات.²

وهذا ما يوجب علينا التخفيف من وطأة الماضي على حاضر اللغة ونحوها، وإعادة النظر فيما ينبغي أن يعاد فيه النظر من الأنظمة المكونة للغة، لتعطي العربية وقواعدها سبيل النماء والعطاء، فينتقى المتعلم اللغة رطبة غضة، ويمتطيها ذلولاً سلسة القيادة، ثم تكون مؤلفات النحو العلمي يتلقاها ذوو الاختصاص، ويديمون البحث فيها للوصول إلى السبيل الأفضل في تعليم اللغة العربية لأبنائها.

والمأمل في التراث العربي يرى بوضوح أن علماءنا أسسوا في ميادين الفقه واللغة والأدب والتفسير مناهج علمية انطلقوا منها لصياغة أساليب للتفكير والبحث والاستدلال والاحتجاج، واعتمدوا على تلك المناهج في تأسيس بحثهم العلمي

¹ مقدمة في النحو لخلف الأحمر ص 33-34.

² إنباه الرواة للقفطي 375/2 وطبقات النحويين للزبيدي ص 41 .

وإنتاجهم الفكري قرونًا متتالية، فقدّموا للإنسانية بحوثًا ومنتجاتٍ رائدة، يمكن الاستفادة منها فيما نسعى إليه.

والحق أن النصوص التي نتحدث عن النحو قبل سيبويه تشير إلى أن منهج النحاة كان يقوم على دعامين هما:

1- أن مهمة البحث اللغوي تحري الظواهر الشائعة في اللغة قبل الظواهر النادرة التي تُنسب إلى اللهجات.

2- صوغ هذه الظواهر العامة في قواعد لا تقبل خروجاً عليها.³

وبعد ذلك كان ما عُرف من تفسير وتعليل وتأويل عند سيبويه والكسائي والفرّاء، إلى أن أصبح المؤلفون يطيلون التلبيث أمام المسائل لعرض الوجوه المختلفة، واللهجات المتفاوتة، والأنظار المحتملة، مع تحليلٍ للتعبير، وتصوّرٍ لما كان عليه من أشكال تركيبية، وصورٍ تصويبية، وبهذا دخل تاريخ النحو مرحلة من التحليل والتعليل مع الكشف عن تفاعل عناصر المقام من ظروف وأحوال، وعناصر المقال من صوتٍ ودلالة وإعرابٍ وصرف، فدرس كل هذه العوامل، وبيّن تعاونها في تكوين العبارة وتأدية المقصد، فصار النحو بهذا يخاطب الفكر الناضج في مجالي اللغة والمنطق.

ولما كان وضع اللغة يشير بشكل ما إلى حالة أهلها من التقدم والتطور، أو التأخر والتردي، فقد تراجع واقع اللغة، وكثر اللحن، وضعفت السليقة التي كانت تحكم الكلام عند العربي، وصارت تمثل وضع العرب الحالي، وما هم فيه من تخلف، وانحسر دورها وقلت قيمتها، وتدنت مكانتها، ونافستها اللهجات المحلية واللغات الأجنبية في عصرنا الحالي. والعربية تدخل اليوم امتحاناً عسيراً أمام مدّ التطور الحضاري الكبير والسريع الذي نعيشه.

فأين أسباب ظاهرة الضعف اللغوي التي نراها واضحة بين المتحدثين بالعربية؟ وأين القصور الذي أدى إلى طغيان هذه الظاهرة التي باتت تشكل همّاً يقض مضاجع الغير عليها؟ وفي الجواب نقول: أصل الداء سبب واحد: ماذا يتلقى

³ ينظر نظام الجملة للدكتور مصطفى صالح جطل، 453/2.

طالب العربية الآن في كليات اللغة العربية وأقسامها بالجامعات؟ إنها أمشاج من قواعد النحو والصرف، مطروحة في مذكرات يملئها الأساتذة إملاء، أو يطبعونها طبعات مبتسرة، ولهذا اختفى الكتاب الجامعي القديم، لتحل محله هذه المذكرات، التي يقرأها الطالب، فيحفظ بعضاً مما فيها على كثرة علاته وأخطائه، ليتقدم إلى الامتحان، ويحصل علامة النجاح دون أن يكون قد تعلم اللغة بالمشافهة والمناقشة والمدارسة، مما دفع الطلاب دفعاً إلى الملل من القراءة والقبول بالمختصرات للحصول على الشهادة الجامعية بأقل جهد ممكن.

وسعيّاً وراء الإنصاف لابد لنا من القول إن ما وصلنا إليه من انحدار في مستوى تعلم اللغة العربية وإتقانها لا تتحمل تبعته جهة واحدة، فمناهجنا وطرائق تدريبنا تحتاج إلى إعادة نظر، لتغدو ملائمة لعصرنا، مواكبة لسرعة تطوره وتغيره، أما ما يدعيه بعض المغرضين من اتهام النحو العربي بالصعوبة فهو باطل من جهتين، أولاهما: أن بعض الألسن تبليغ من التعقيد ما يجعل العربية بإزائها لساناً في غاية البساطة والسهولة، وثانيهما: أن العمل اللغوي فعل يأتيه اللسان بالسليقة والغريزة من غير أن يشعر بما يشتمل عليه من صعوبة، والتحليل وحده هو الذي يكتشف عمّا في الأفعال الإنسانية من تعقيد، فهذه الدعوى إذاً باطلة لا أساس لها من الصحة، وإن كان في إحياء لغتنا تقصير فهو منا، والصعوبات اللغوية التي يواجهها المتعلم تتلخص في أسلوب عرضنا للمادة اللغوية فعلينا مثلاً أن نفصل بين النحو العلمي والنحو العملي، وأن تكون لكل منهما سبله الخاصة. فقد بين ابن حزم⁴، أن الغاية من النحو إتقان هجاء اللفظ، وأنماط الإعراب، لتحصيل العلم وقدرات المخاطبة. وأشار ابن خلدون إلى هذا المعنى أيضاً في مقدمته، إذ أوضح الأثر السلبي في نفس المتعلم حين يُحمّل عبء غايات بعيدة وهو غير قادر على متابعتها⁵.

⁴رسائل ابن حزم 66/2 .

⁵مقدمة ابن خلدون ص 1003.

وعلينا أيضاً أن نهتم بالقواعد الوظيفية التي ترد في كتب أصول النحو، ويلازمها الدوران والاستعمال في لغتنا المستخدمة الآن، ولعل من المشاكل اللغوية التي نعاني منها اليوم في عرضنا للمادة النحوية مساواتنا بين قاعدة قد لا تعرض للاستعمال غير مرة في الكتاب الكامل وبين قاعدة ذات دوران في كل صفحة من صفحات كتاب ما، وهذا أمر غير منطقي، وهو يدلنا على أننا بحاجة اليوم إلى فرز للقواعد المشتركة بين النحويين، وبحاجة أيضاً إلى التركيز على القواعد الحية التي مازال الطلبة يحتاجونها في تعبيرهم اليومي، ليوضع كل ذلك في كتاب تعليمي بسيط قريب المتناول، يلبي حاجة الطلبة، إلى جانب نحو علمي بهم ذوي الاختصاص، وهذا ما ركز عليه شومسكي⁶ في بحوثه اللغوية حين أشار إلى النحو العملي أو التربوي، ورأى أنه يتصف بالسماة التالية :

1- هو نمط خاص يتكون من مادة مختارة من النحو العلمي المفصل طبقاً لمعايير تتوخى السهولة والفائدة .

2- يحذف هذا النوع من النحو قدرأ من المعلومات التفصيلية كي تناسب الاستخدام الوضعي، وعلى هذا فإن النحو العلمي عنده دقيق ومفصل، ولكنه أعقد من أن يكون مادة تعليمية. وهذا يعزز الغاية النفعية من النحو. فيشعر المتعلم بأهمية ما يتعلمه وبضرورته لفهم كل ما يقرأ ويسمع، وذلك سيسهم في تقريب النحو من أفهام المتلقين، لأنه يلامس حاجتهم الفكرية والاتصالية والتعبيرية .

من وجهتي النظر هاتين، التراثية القديمة واللغوية الحديثة، يجب أن يكون انطلاقنا لتحسين أساليب تعليم اللغة العربية، وعلينا بداية أن نضع الغاية التي نرجوها نصب أعيننا . فالهدف الحقيقي الذي نبغيه تحقيق الكفاءة التواصلية اللغوية لدى المتعلم، والحفاظ على اللغة بقواعدها العامة، وتحقيق هذين الهدفين يجب أن يتأتى بتعزيز التدريب على استخدام مهارات اللغة قراءةً وفهماً وكتابةً وكلاماً .

⁶ -Shomski,Naom.Some conceptsand consequenceof the theory of government and binding.printing; london; England,

وما يلاحظ أن معظم مؤلفي كتب النحو التدريسي تصوروا أن تعليم اللغة يمكن أن يتم بالتطبيق الواعي للصياغات التجريدية، الأمر الذي أدى في حالات كثيرة إلى حفظ القواعد دون القدرة على إجادتها استخدامها، وهذه الطريقة من الدرس سيطرت على فكر أكثر واضعي كتب النحو، والحق أن تعلم اللغة لا يكون بحفظ القواعد بل باكتشافها بعد ترسيخها نظاماً مستنبطاً يستند إليه المتكلم في كلامه، وهذا التفسير يوضح لنا سبب الضعف اللغوي الذي نراه عند أبنائنا .

وقد سبقنا ابن خلدون إلى القول بأن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربي⁷، فالملكة عنده هي الصفة الراسخة أو المهارة المكتسبة في استعمال اللغة، فهي قدرة يكتسبها الإنسان، يحكم بها أفعاله الكلامية. وهي غير علم النحو. فمعرفة المتكلم اللغة التي ينطق بها هي معرفة عملية غير نظرية. أما علم النحو فهو نتيجة إعمال الفكر في بنية اللغة وأوضاعها. وليس معنى هذا أن المتكلم لا يعرف النحو، إنما المعرفتان مختلفتان. وقد نبّه على ذلك عبد القاهر الجرجاني حين قال: «لو كان النظم يكون في معاني النحو لكان البدوي الذي لم يسمع بالنحو قط..... لا يتأتى له نظم الكلام». إن الاعتبار إذاً بمعرفة مدلول العبارات لا بمعرفة العبارات، فإذا عرف المرء معنى (جاء زيد الراكب) لم يضره ألا يعرف أن قول النحاة في الراكب هنا: صفة، وأن قولهم في (جاء زيد ركباً): الراكب هنا حال.

إن محاولتنا لترميم هذا الضعف تكون بفهم قضية مفادها أن اللغة أسبق في الوجود من قواعدها، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد لنا إذاً من إيجاد الوسائل التعليمية لإكساب المتعلم هذه المهارة. أما إكسابه المعرفة النظرية فهذا يتأتى له بعد مرحلة اكتساب الملكة الأساسية. ولهذا فإنه يترتب علينا أن ننمي السليقة اللغوية عند المتعلمين. وذلك بالتركيز على القراءة الجهرية حتى تألف الأذن الجملة الفصيحة السليمة، وبالاهتمام بالدرس الذي يعتمد المشافهة سماعاً ونطقاً، وهذا أمر مغيبٌ

⁷ ابن خلدون، 1322هـ مقدمة ابن خلدون المطبعة الخيرية، القاهرة ص، 1073.

في تعليمنا أو هو مهمل لا ينال العناية اللازمة، فمعظم تعليمنا يركز على شرح القواعد وحفظها لكتابتها فيما بعد على ورقة الامتحان، في الوقت الذي لا يكون فيه للامتحانات الشفهية - على أهميتها - مكانة ذات شأن .

إن الأداء اللغوي يتجلى في جانب كبير منه - كما سلف - عبر الكفاءة التواصلية، ومن المفترض أن أبناء اللغة يكتسبون هذه الكفاءة في مرحلة مبكرة من تعلمهم لغتهم الأم، غير أن ذلك لا ينطبق على لغتنا إلا فيما يتعلق بالتواصل العامية. ومن المفترض أن يُعوّض هذا النقص بأن يتمّ التواصل في المؤسسات التعليمية باللغة الفصحى، على أن الملاحظ أن هذا التواصل بالفصحى محصور في الجانب المكتوب، أما الجانب الشفهي فهو في معظم الحالات يتمّ بالعامية. وهذه الازدواجية في اللغة العربية بين العامية والفصحى سبب من أسباب الضعف اللغوي. ويزداد الأمر وضوحاً إذا أخذنا بعين الاعتبار مزاحمة العامية للفصحى في مكان استعمالها الطبيعي، أي في المؤسسات التعليمية. فما يلاحظ على طلابنا أنهم لا يعبرون في أدائهم - خاصة - في المستوى المكتوب الضيق - عن كفاءة متقنة .

إن الاهتمام بالمشافهة في التلقي والحوار والتفاعل بين المعلم والمتلقي سيكسر حاجز الخوف من الكلام باللغة الفصيحة عند المتعلمين، وسيساعد المتعلم على ألفة التعبيرات الفصيحة السليمة، فينمو عنده ما يسمى بالنحو الضمني، الذي يقصد به أن تراكيب اللغة تكتسب بصفاتها عادات لغوية عن طريق التكرار المكثف، فينشأ في عقل المتعلم بعد ذلك هيكل لغوي كامل يكون الأساس الذي ينطلق منه في صياغة تراكيبه وعباراته. وهذا لن يمتلكه المتعلمون إلا حين ينال الجانب التطبيقي من الدراسة مكانته التي يستحق.

إن هذا المران وكيفية إجرائه هما مدار بحث المختصين في صناعة تعليم اللغات اعتماداً على ما أثبتته علماء النفس والتربية واللسانيات، إذ توصلوا إلى إثبات بعض الحقائق المتعلقة بالتحصيل، وذلك مثل سهولة اكتساب اللفظ الجديد أو التركيب الغريب عند المتكلم إذا جاء مكتتفاً بألفاظ مأنوسة وتراكيب مألوفة، مع الكثير من القرائن التي تدل على معناه، وهذا يؤكد مرة أخرى أن ملكة اللغة لا

يمكن أن تكتسب باستظهار القواعد، لأنها مهارة وقدرة على التصرف بالكلام بكيفية لا شعورية .

إن التطبيق الناجح للتدريبات النحوية واللغوية يقتضي مناً تحديد الأهداف السلوكية المطلوبة، ولن يكون لنا هذا إلا بتحديد مستويات يهدف المعلم إلى تحقيقها عند المتكلم في الدرس النظري، وهذه المستويات يمكن إيجازها بما يلي :

1- مستوى عرض المعلومات المطلوبة والمختارة بعناية، لتلبي حاجة المتعلم، لتحقيق الكفاءة التواصلية المنشودة.

2- مستوى الاستيعاب ويتناول قدرة الطالب على أن يعبر بأسلوبه عما تعلمه، وأن ينقل الفكرة بلغته، وهذا يعني أنه يحقق الفهم والتعبير عن المعلومة المفهومة .

3- مستوى التطبيق ويكون باستخدام المعلومات التي تلقاها المتعلم في مواقف جديدة .

4- مستوى التحليل ويتناول قدرة الطالب على تجزئة الفكرة الواحدة إلى مكوناتها .

5- مستوى التركيب ويحدد قدرة المتعلم على تنسيق الجزئيات لتؤلف كلاً متكاملًا، يأخذ مكانه في بناء هيكله النحوي الذهني .

ويبقى بعد هذا أن نربط دراسة اللغة والنحو بعلم البلاغة، وذلك بتلمس مواطن الجمال في التركيب اللغوي بأشكاله المتعددة، لأن هذا ينمي ملكة الذوق والفن عند المتعلمين، ويرفع مستوى إحساسهم بجمال اللغة. فالنحو يدرس التركيب، وعلم البلاغة يدرس جماله، والجمال يعني في كثير من جوانبه عند البلاغيين الصحة في اتباع قواعد التركيب، وهذا ما أشار إليه عبد القاهر الجرجاني حين قال: «ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها..... وأن ينظر إلى الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى، فيضع كل ذلك في خاص معناه، نحو: أن يجيء بـ(ما) في نفي الحال، وبـ(لا)

إذا أراد نفي الاستقبال، وبـ(إن) فيما يترجح بين أن يكون أو لا يكون⁷. وهذا يعني أن عبد القاهر وغيره ممن درسوا البلاغة ووصفوا فيها، كانوا يدرسون التركيب، ويعرفون العلاقات بين ألفاظه، ثم ينظرون إلى تلك التراكيب نظرة البلاغي، فيحاولون الكشف عن الجمال فيها. وتتضح تلك الصلة أكثر ما نتضح بين علمي النحو والمعاني، فالشركة قائمة بين هذين العلمين لدراسة الجملة؛ وهناك بين هذين العلمين مباحث كثيرة مشتركة كبحث الرتبة مثلاً الذي حدد النحاة قواعده وأشبعوه درساً، في حين كان فيه علماء المعاني يفصلون القول في الرتبة غير المحفوظة، ويقيمون عليها دراسات أسلوبية هامة تحت عنوان التقديم والتأخير، ومثل هذا يمكن قوله في الحذف والذكر، والإظهار والإضمار، والفصل بين المتلازمين، والفصل والوصل، إذ استقصى علم المعاني قواعد النحاة في هذه المواضع، فذكر الفوائد الجمالية لكل هذه الأساليب⁸.

فالنحو بغير المعاني جفاف قاحل، والمعاني بغير النحو أحلام قد ينأى بها الوهم عن المطابقة النحوية، وقد ينحاز بها إلى نزوات الذوق الفردي. ولهذا كله كانت الحاجة ملحة إلى أن تكون الدراسات النحوية متصلة بدراسات علم البلاغة، فيتاح بهذا لكل دارس تربة النحو مما يعزى إليه من جمود وقواعد صارمة، ويمكنه من التركيز على جماليات الجملة العربية بكل صورها، ويعيد بذلك إلى اللغة جانباً فنياً كان التعليم قد أهمله على حساب الاهتمام بالإعراب والعامل والمعمول.

ومما يجدر ذكره هنا أن علينا تمثل فكرة أساسية في بحثنا عن سبل تطوير تعليم اللغة العربية، وهي أن اللغة وسيلة اتصال بين الناس، تفرض قواعدها، ولا يمكن ضبطها ضبطاً تاماً. وهذا يستدعي من القائمين على أمر اللغة من الباحثين ومجامع اللغة أن يتأنوا في مسألة رمي الناس باللحن إذا كان في كلامهم ما يمكن توجيهه بشكل تقبله اللغة، ولا يسيء إليها، لأن التشدد في إصدار أحكام تخص الخطأ

⁸ عبد القاهر الجرجاني، 1978 دلائل الإعجاز تصحيح محمد عبده بيروت، لبنان، ص 64.

⁹ تمام حسان، 1981 الأصول، المغرب، ط 1، ص 341.

واللحن قد لا يؤدي الغاية المرجوة منه، بل إنه قد يكون سبباً في إبعاد الناس عن التكلم باللغة الفصيحة.

فقد قيل مثلاً: إن كلمة (مُهْمَة) خطأ والصواب أن يقال: مَهْمَة، وشاعت هذه الكلمة على أنها تصحيح للفظ الأول، وعند التحري يثبت أن لفظه (مُهْمَة) صحيحة فصيحة لا غبار عليها. فالدكتور إحسان النص نائب رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق يأتي بالقول الفصل في ذلك حين ينشر تحقيقاً لغوياً تناول تلك الكلمة في مجلة مجمع اللغة العربية انتهى فيه بعد الرجوع إلى المعاجم إلى أن أصل (هم) معناه الحزن والغم، وقال: يستعمل المحدثون لفظ المَهْمَة بمعنى الأمر الذي يكلف المرء بالقيام به، ولم يرد في المعجمات هذا اللفظ بهذه الدلالة، وإنما ورد مصدرها (همَّ الأمر)، ويمكن أن يستعمل بهذه الدلالة لفظ المَهْمَة على تقدير حذف الموصوف، أي: قضية مهمة. والمهمات من الأمور الشدائد⁹.

ومن ذلك أيضاً أنهم نعتوا كلمة (رئيسي) بالخطأ فصارت الكلمة في وسائل الإعلام: الرئيس، والكلمة الأولى صحيحة، فهي نسبة إلى الصفة المشبهة، وفي بحث النسب من كتب النحو توضيح لذلك.

وعليه فإن عود اللغة إذا أنت عجمته وجدته صلباً قوياً قادراً على الصمود، لاخوف عليه ولا وجل، فلغتنا متميزة بأنها أطول اللغات الحية عمراً، وقد انتصبت منارة هادية على مدى ستة عشر قرناً من الزمان واستطاعت أن تثبت - عبر هذا العمر الطويل - أنها قادرة على التطور والنمو لتواكب حاجات العصر، وتلبي رغبات المتحدثين بها. وكل ما علينا بعد هذا أن نعمل على إيصال هذه اللغة إلى الأجيال التالية، وذلك بأن نعلمهم إياها لتواكب، ونحببها إليهم بطرق مدروسة، تلائم عصرنا بكل ما فيه من ألوان التطوير التقني والمعلوماتي.

10 مجلة المجمع، دمشق، المجلد 2 لعام 1997، ص 575 - 576.

This research introduces a comprehensive demonstration for the situation of Arabic lingual lesson, and tries to analyze the reasons of the weakness that we see among our dear students. It also provides and suggests many solutions which seemed to be suitable for involvement in combating this phenomenon ,in order to preserve the Arabic language ,the language of Arab identity and nationalism, in response to the attacks and suspected campaigns that accuse the Arabic language, its syntax ,and grammar of being difficult and complicated

المصادر والمراجع

- 1- SHOMSKY NOAM., 1982- Some concepts and consequence of the theory of government and binding 2nd.printing; london; England, 1.
- 1 - الأحمر خلف، 1961 - مقدمة في النحو. دمشق، 33 - 340.
- 2- الجرجاني عبد القاهر، 1981 - دلائل الاعجاز. تعليق محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، 840.
- 3 - جطل مصطفى صالح، 1979 - نظام الجملة. منشورات جامعة حلب، 453/2.
- 4- ابن حزم، أبو محمد علي، 1987، رسائل ابن حزم، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط2.
- 5 - حسان تمام، 1981 - الأصول، الطبعة الأولى، دار الثقافة، الدار البيضاء.
- 6- ابن خلدون، 1322هـ - مقدمة ابن خلدون، المطبعة الخيرية، القاهرة.
- 7- الزبيدي الأندلسي، أبو بكر محمد بن الحسن، طبقات النحويين واللغويين، دار المعارف بمصر، ط2، د.ت.
- 8- القطفي علي بن يوسف، 1950 - إنباء الرواة. تحقيق محمد أبو الفضل، دار الكتب المصرية، القاهرة، 375/2.
- 10- مجمع اللغة العربية، مجلة المجمع، المجلد الثاني، لعام 1997 .